الفصل الأول

ما معنى الفكر؟

«ليس الإنسان إلا نوعًا من العُشْب؛ ذلك الشيء الأضعف في الطبيعة؛ غير أنه عُشْبٌ يفكر».

بليز باسكال[1]

ما الفكر؟ من شأن هذا أن يبدو أشبه بسؤال غريب في بداية أي كتاب؛ لأن من المضمون الرهان على أن أي شخص يتحلى بما يكفي من الجرأة لقراءة كتاب ـ لا سيما كتاب عن الفكر ـ لن يكون بعيدًا عن التفكير، حقًا ربما سبق لك اليوم أن جال بخاطرك عدد لا بأس به من الأفكار، فمع احتمال مرور أوقات في أثناء النهار العادي التي لا تخطر للمرء إبانها سوى القليل من الأفكار ـ بل وقد تمر أوقات يكون فيها عقل الإنسان خاليًا تمامًا من التفكير ـ فإن حياة خالية من الفكر لن تكون حياة إنسانية قابلة للتعرف عليها، وسواء أكانت الأفكار عادية (أنا جائع)، أم منذرةً (يحمل مسدسًا)، أم عميقة (بعض اللانهائيات أكبر من بعضها الآخر)، أم صارخة الشذوذ

(1) فيزيائي ورياضي وفيلسوف فرنسي (1623_1962م).

والغرابة (ظل الله على الأرض)، فإن من غير القابل للإنكار أن التفكير أمر طبيعي بالنسبة إلى البشر، ويمكننا أن نقول: إن الفكر بالنسبة إلى البشر هو الطيران بالنسبة إلى النسور والسباحة بالنسبة إلى الدلافين.

غير أن التفكير شيء وفهم طبيعة التفكير شيء آخر كليًّا، تمامًا كما تحلِّق النسور دون أي إحاطة بمبادئ حركات الجو، وتسبح الدلافين دون أي فهم لفيزياء العَوْم، فإن أكثرنا يفكر دون أي غَوْصٍ حقيقي في فهم طبيعة الفكر، وقد يكون التفكير أمرًا عاديًّا، غير أن من شأن التفكير بالفكر نفسه أن يتخذ مسارًا خاصًّا.

تقوم دراسة الفكر على عدد من الاختصاصات، يتولى الفلاسفة استكشاف بنية الفكر المنطقية والعلاقة بين الأفكار وظواهر عقلية أخرى، مثل الحالات الإدراكية والأحاسيس الجسدية، أما علماء النفس فيدرسون العمليات التي تسند قدرتنا إلى التفكير وأساليب تعطيل هذه العمليات، ويعكف علماء الأعصاب على معاينة الآلية العصبية للتفكير، ويهتم علماء الجنس البشري بالتدقيق في التنوع الثقافي لأنماط التفكير. أما اللغويون، فيبادرون إلى معاينة العلاقة بين الفكر واللغة، في حين يركز علماء السلوك (الحيواني) المعرفي على دراسة الفكر في الأجناس غير البشرية، ويتوجه الباحثون الذين يعملون في علم الحاسوب والذكاء الاصطناعي نحو استكشاف طرق توفر إمكانية تحقيق التفكير بوساطة أجهزة غير حيوية.

في هذا الكتاب أمارس حرية الاستفادة من هذه الاختصاصات لاجتراح مقدمة لبعض جوانب الفكر المذهلة الكثيرة، وستكون التغطية المقدَّمة هنا انتقائية بالضرورة؛ بعض جوانب الفكر لن تَرِد إلا على نحو

عابر، في حين أن جوانب أخرى كثيرة سيتم إغفالها كليًّا، إلا أن المساحة التي نغطيها ستكون- كما آمل- قادرة على فتح شهيتكم على المزيد من التقصي والغوص في أحد أكثر الموضوعات الموجودة إثارة للدهشة.

غالبًا ما يستدعي التفكير بأي موضوع تفكيرًا واضحًا اعتمادَ ألوانٍ من التمييز، وليس التفكير الواضح بالفكر استثناءً من هذه القاعدة العامة؛ فعبارة (فكر) يمكن أن تدل على ثلاث سمات مختلفة تمامًا للحياة العقلية. يمكن لعبارة (فكر)، أن تدل أولًا على نوعية معينة من القدرة العقلية، وتمامًا كما توجد قدرات عقلية معطوفة على قابليَّتَيْ الرؤية والسمع، فثمة أيضًا قُدرة ـ ربما قدرات ـ عقلية معطوفة على قابلية التفكير، وقُدرة التفكير هذه تثير عددًا من الأسئلة؛ ما الذي يتطلبه امتلاك مثل هذه القُدرة؟ ما المخلوقات المتمتعة بمثل هذه القُدرة؟ ما طبيعة العلاقة بين قُدرة الفكر والقدرات العقلية الأخرى، مثل تلك الموجودة في الإدراك واللغة؟

ثم، من شأن عبارة (فكر) أن تدل على نمط معين من الحالة أو الحادثة العقلية؛ فتفكير المرء بشيء يعني وجوده أمام عقله على نحو ما، بالتأكيد توجد طرق لا تتطلب فكرًا كي يوضع شيء أمام العقل، من شأن رؤية شيء- مثلًا- أن ينطوي على استحضاره أمام العقل، غير أن رؤية شيء ليست موازية لإحدى طرق التفكير به على الرغم من أننا نستطيع ـ وكثيرًا ما نفعل ـ أن نفكر بالأشياء التي نراها، ومع أن من غير السهل أن نحدد بدقة ما ينطوي عليه استحضار شيء ما أمام العقل بطريقة يتميز بها الفكر، فإن الظاهرة مألوفة على نحو يكفي، حين يقول تولستوي عن آنا كارنينا: «فقط بالانشغال نهارًا وبالمورفين ليلًا كانت تستطيع خنق الفكرة

المخيفة المتمثلة بما قد يحصل إذا ما توقف عن حبها»، نقف مباشرة على حالتها العقلية. ولكن، هل نستطيع أن نتجاوز الالتقاط الحَدْسي المجرد للأفكار وصولًا إلى فهم طبيعتها؟ هل نستطيع أن نميز الأفكار عن أنواع الأحداث العقلية الأخرى، مثل الأحاسيس الجسدية، أو الخبرات الإدراكية، أو الحالات العاطفية؟ هل نستطيع تعرُّف الطريقة التي يمكن لنوع معين من الفكر (مثل الوقوف على عدم صواب الفاتورة) أن تختلف بها عن آخر (مثل التساؤل عما إذا باتت القهوة جاهزة)؟ وما الطبيعة الأساسية للأفكار؟ هل يمكن تفسيرها من منطلق حالات فيزيائية من نوعية معينة، أم علينا أن نلتمس نوعًا من أنواع الواقع اللامادي لتفسيرها؟

سمة ثالثة للحياة العقلية تندرج تحت عبارة (فكر) تخص نوعًا مميزًا من أنواع النشاط، تمامًا كما يمكن للمرء أن ينشغل بمهمة البحث عن شخص معين أو الإصغاء لشيء ما، يمكنه أيضًا أن ينشغل بمهمة التفكير بشيء محدد. نُعْفي أنفسنا قائلين إننا «ضائعون في الفكر»؛ نعتذر عن مناقشة موضوع معين بالإقرار بأننا أكثر تعبًا من أن نفعل! نصف بعضهم بأنهم (عميقو التفكير) وآخرين بأنهم (بطيئو التفكير)، وبالفعل فإن المثقفين يجري عَدُّهم مفكرين ببساطة كما لو كانوا يحتكرون هذا الضرب من النشاط! هنا أيضًا تطرح علينا طبيعة الفكر جملة من الأسئلة؛ ما الذي ينطوي عليه التفكير الفاعل بأي موضوع على نحو دقيق؟ هل توجد أنماط متباينة من سيرورات الفكر؟ إذا كان الأمر كذلك، فما صورة الترابط فيما بينها؟ ما المعايير التي يجب أن توجِّه نشاط الفكر؟

لن نكون قادرين على الإجابة عن هذه الأسئلة جميعها التي طُرحت للتو، غير أننا سنتمكن من الشروع في طرق بابها. تعالوا نبدأ بقُدرة الفكر.

قُدرة الفكر

وصف الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت ذات مرة الفكر قائلًا إنه: «أداة شاملة يمكن استعمالها في صنوف الأوضاع جميعها». ما الذي يمكن أن يكون عناه بهذا البيان؟

عاينِ الفرقَ بين إدراك التفاحة ومجرد التفكير بها، كي تدرك التفاحة لا بد من وجود ترابط سببي بينكما، ويتعين على الضوء الذي يضيء التفاحة أن ينعكس عليها وصولًا إلى قيام جهازك البصري بترجمته. أما التفكير بالتفاحة بالمقابل، فلا يتطلب أي ارتباط سببي مباشر من ذلك القبيل؛ فالإدراك يستدعي احتكاكًا مباشرًا بالأشياء الموجودة في دائرة شعور المرء، أما التفكير فلا يستلزم ذلك، يضاف إلى ذلك أن من الضروري تحقُّق أنواعٍ معينة من الشروط البيئية الدقيقة تمامًا من أجل إدراك شيء ما؛ فلكي تتم رؤية تفاحة وهي تسقط عن شجرة، لا بد للشجرة من أن تكون في ساحة الرؤية؛ كي يُسمع سقوط التفاحة على الأرض، لا بد لعملية السقوط من أن تحصل داخل مدى السمع. صحيح أن التكنولوجيا تمكِّننا من التغلب على هذه المعوقات إلى حدود ـ فالمرايا تتيح لنا رؤية ما وراءنا، والميكروفونات تمكننا من سماع أصوات واقعة في أمكنة بعيدة ـ غير أن الإدراك يظل ـ رغم أخذ هذه العوامل بالحسبان ـ متوقفًا على البيئة خلافًا لحال الفكر، حيث يستطيع المرء أن يفكر بالشيء (أي شيء)

وإن كان هذا الشيء ملفوفًا بالضباب أو مخبوءًا في غرفة معزولة صوتيًّا، ونستطيع التقاط هذه النقاط بالقول إن الفكر يسمح للمخلوق أن يمثل بيئته بأسلوب (محايد، ومستقل عن المثير) في حين يبقى الإدراك منطويًا على صورة من صور الاحتكاك (المنحاز والمستند إلى دافع) مع العالم؛ وبعبارة أخرى: في حين لا يمكن لقدرات الإدراك أن توظَّف إلا في أنواع معينة من الحالات (حين يكون الشيء حاضرًا وتكون البيئة متعاونة)، فإن قُدرة الفكر يمكن توظيفها في أنواع الأوضاع أو الحالات جميعها، كما أفاد ديكارت.

إن حقيقة أن الفكر يمثل الأشياء بأسلوب محايد ومستقل عن المثيرات، يتيح لنا فرصة التفكير بهذه الأشياء في غيابها، إذ يمكننا التفكير بأحداث لم تقع بعد كما نستطيع أن نفكر بأحداث لن تقع مطلقًا؛ حقًا يمكننا أن نفكر بأحداث يستحيل وقوعها، وهذه القابلية تمكِّننا من توقع عواقب أحداث معينة قبل وقوعها والتهيؤ لها. إذا كانت العواقب المتوقعة للحدث إيجابية، فإننا قد نحاول إحداثها؛ أما إذا كانت تلك العواقب سلبية، فنستطيع أن نُقْدم على خطوات للحيلولة دون وقوعها، وهكذا فإن مخلوقًا يتمتع بالقدرة على التفكير يستطيع أن يتحكم في البيئة على نحو لا يستطيعه مخلوق معتمد على مجرد الإدراك وحسب.

ثمة سمة أخرى للفكر يدلنا عليها وصف ديكارت تتعلق بمداه؛ ففي حين أن الإدراك لا يمكِّننا من الوصول إلا إلى سلسلة قصيرة من الأشياء، فإن باع الفكر يبقى (عمليًّا) غير محدود، وسلسلة الأشياء التي يستطيع أي مخلوق أن يدركها مقيدة بسمات قدراته الإدراكية. لا نستطيع أن نرى أشياء بالغة الصغر، لا نستطيع أن نسمع أصواتًا بالغة الخفوت، غير أنه ليس ثمة

أي حد لسلسلة الأشياء التي نستطيع أن نفكر بها، ويمكننا التفكير بأشياء بعيدة عنا مكانًا وزمانًا، يمكننا ـ بالفعل ـ أن نفكر بأشياء متعذرة الإدراك من حيث المبدأ، مثل الأرقام أو الجزئيات دون الذرية، ويبقى المرء قادرًا على التفكير بأي شيء طوال بقائه مهتديًا إلى التركيز عليه. لا يحتاج المرء إلى ما هو أكثر من اسم (جنكيز خان؛ بوركينا فاسو) أو صفة (القهوجي في المقهى التي على الزاوية؛ أعظم لاعبي كرة القدم البرازيليين) حتى يتمكن من التفكير بشيء.

يتعلق جانب استثنائي الأهمية من جوانب عدم تقييد مدى الفكر بأنواع الصفات التي يمكِّننا من تحرِّيها. مرة أخرى، تكون المقارنة مع الإدراك مجدية، ومن الممكن رؤية أن التفاحة حمراء أو مثلومة الجانب، إلا أن مخلوقًا وحيدًا قادرًا على التفكير يستطيع أن يتفهم واقع أن التفاح ناشئ في آسيا الغربية وأن له مورِّثات أكثر من المورثات البشرية؛ بعبارة أخرى، يمكِّننا الفكر من التقاط سمات العالم البعيدة عن متناول الإدراك. والمخلوق الذي لا يتوافر إلا على قدرات إدراكية يستطيع التجاوب مع السمات المادية لبيئته، غير أنه لا يستطيع أن يتجاوب مع سماته الاقتصادية، السياسية، أو النفسية، ولا يستطيع أن يُقْدم على خطوات لإبطال تأثيرات التضخم، للاشتراك في انتخاب، أو لمحاولة إقناع آخرين بأن وجهات نظرهم غير صحيحة. هل بوسع الفكر أن يمثل العالم بوصفه غير محدود على نحو مطلق؟ ربما لا ـ من شأن الفكر هو الآخر أن يكون ذا حدود كما سنرى في الفصل الأخير، غير أن من المحتمل أن تكون حدود مدى الفكر ضئيلة نسبيًّا.

تتمثل سمة ثالثة للفكر دلنا عليها وصْفُ ديكارت بطبيعته المنهجية، التكاملية، والانفتاحية؛ فالفكر يتيح للفرد فرصة عطف حالة للأمور على أخرى ـ فرصة الإمساك بالروابط الكامنة تحت الغلاف الخارجي للأشياء، فكِّروا بحدث شهير في تاريخ الطب ذي علاقة بالطبيب المجري إيغنار سيملفايس؛ ففي أثناء عمله بأحد مشافي فيينا، لاحظ سيملفايس هذا أن الإصابة بحمى المواليد الجدد أكثر تكرارًا في أحد الأجنحة، ولاحظ أيضًا أن طلاب الطب العاملين في هذا الجناح كانوا قد مارسوا عمليات التشريح للتو، أما الآخرون العاملون في الجناح الآخر، فلم يفعلوا ذلك، فتساءل عن احتمال قيام الطلاب بنقل (المادة الملوثة) إلى الحوامل. أجرى اختبارًا لهذه الفرضية بأن طالب الطلاب بغسل أيديهم بمادة هيبوكلورايت الكالسيوم ـ مادة مزيلة للرائحة الناتجة من تشريح الجثث ـ قبل فحص الحوامل، فأدى اعتماد هذه الممارسة إلى انخفاض دراماتيكي في معدل الوفيات الناجمة عن حمى المواليد الجدد. إن بحث سيملفايس الذي أرسى قواعد نظرية المرض الجرثومية تطلَّبَ فِعْلَيْ تفكير: لم يكن بحاجة فقط إلى الإمساك بالعلاقة غير الملحوظة من قَبْلُ بين أنشطة طلاب الطب ومعدلات الإصابة بالحمى المتضاربة فحسب، بل وإلى طريقة لاختبار فرضيته.

هذه القصة في تاريخ الطب توفر مثالًا ساطعًا على القوة التكاملية والإبداعية للفكر، إلا أننا نقوم بتوظيف هذه القوى يوميًّا، سواء أكنا بصدد التخطيط لإجازة فيما وراء البحار بالاستناد إلى ميزانية محدودة؛ السعي لتدبير أمر برنامج عمل مثقل بتحديات

تربية الأولاد، أم مجرد محاولة الاهتداء إلى أفضل الطرق للانتقال من (أ) إلى (ب)، فإن أكثريتنا تبدد جزءًا كبيرًا من حياتها عاكفة على التفكير بالعلاقة بين الأحداث، وبالفعل فإن القوة التكاملية للفكر تتكشف ليس فقط في المحاكمة النظرية والعملية وحسب، بل وفي السخرية والمُزاح؛ فامتلاك ناصية طُرْفَة أو نُكْتَة يتطلب أنموذجيًّا تقويم العلاقات القائمة بين موضوعات متباعدة عادة، (ثمة سمكتان في صهريج، إحداهما تقول للأخرى: كيف تسوقين هذا الشيء؟).

ومن الجوانب المهمة لمنهجية الفكر أن القدرة على امتلاك أنماط معينة من الأفكار متوقفة حميميًّا على قابلية امتلاك أنماط أخرى من هذه الأفكار، فمن يكون قادرًا على التسليم بفكرة أن سليمان أطول من فرح، ينبغي أن يكون قادرًا على التسليم بأن فرح أطول من سليمان (والعكس بالعكس)، وهذه القابلية تفسرها حقيقة أن الأفكار إنشائية؛ فالتفكير بأن سليمان أطول من فرح يتطلب امتلاك أسلوب في التفكير بسليمان، وأسلوب للتفكير بفرح، وأسلوب للتفكير بعلاقة أطول من. وإذا كان المرء قادرًا على التفكير بكل من ماركو، وفالنتينا، وعلاقة أطول من، فإنه قادر إذن على التفكير بأن سليمان أطول من فرح من ناحية، وبأن فرح أطول من سليمان من ناحية أخرى، فمنهجية الفكر هذه سمة بالغة الأهمية؛ لأنها هي التي تجعل العقلانية ممكنة، فذلك الذي يتوافر على المفاهيم ذات العلاقة يستطيع استنتاج أن سليمان أطول من فرح، وإذا كانت فرح بدورها أطول من وليد، فإن على سليمان عندئذٍ أن يكون أيضًا أطول من وليد، بما يؤدي إلى إغناء رصيد معرفته.

لقد رأينا أن وصف ديكارت للفكر بأنه أداة شاملة يمكن توظيفها في سائر ضروب الأوضاع، ينطوي على ثلاث سمات مركزية للفكر؛ أولًا: ينطوي على حقيقة أن الفكر يتضمن القدرة على تمثيل الأشياء بطريقة مستقلة حافزيًّا ومحايدة بيئيًّا. ثانيًّا: ينطوي على أن الفكر يشتمل على تمثيل سلسلة غير محدودة (نسبيًّا) من الأشياء والأوصاف. ثالثًا: ينطوي على أن الفكر يعني القدرة على تمثيل بيئة المعني بطريقة بنيوية قائمة على الانفتاح، قدرة تؤكد إمكانية العقلانية والرؤيا.

علينا قبل الاستئناف أن نقر بأن تصور الفكر الذي تم إيجازه للتو، إنْ هو إلا نوعٌ من إضفاء الصفة المثالية، وبأن قدرة أي شخص على تمثيل العالم قد ترتقي إلى مستوى عملية الإضفاء هذه من بعض النواحي، غير أنها قاصرة عنه من نواحٍ أخرى. من شأن بعضهم ـ مثلًا ـ أن يكونوا قادرين على تمثيل الأشياء في غيابها، ولكنْ مع اقتصار تمثيلهم على سلسلة محدودة جدًّا من مواصفات تلك الأشياء. بالمقابل، قد يكون أشخاص قادرين على تمثيل مجالات شبه فكرية مختلفة، ولكن مع بقائهم ذوي قابلية محدودة نسبيًّا على صعيد التفكير بالعلاقات الممكنة بين تلك المجالات، ما الذي يتعين علينا قوله في مثل هذه الحالات؟

أظن أن علينا أن نقول إن أي مخلوق يتوافر على قُدرة فكر تتناسب مع مدى قدرته على تمثيل العالم على النحو الموجز قبل قليل، قد لا يكون ثمة أي خط واضح وساطع يفصل بين أولئك الذين يستطيعون أن يفكروا عن أولئك الذين لا يستطيعون التفكير، علينا بدلًا من ذلك أن نعترف باحتمال وجود مخلوقات ـ أطفال صغار، حيوانات غير بشرية، مثلًا ـ تكون قدراتها

التمثيلية شديدة القصور عن المواصفات المثالية للفكر، ولكنها شبيهة بالفكر إلى درجة مثيرة، وبالفعل فإن من شأن مخلوقات (مثلنا نحن) مصنَّفة بوضوح ودونما لبس في خانة المفكرين قد تكون مفتقرة إلى هذه المواصفات من نواح معينة؛ لأننا لا ننجح دائمًا في جمع اثنين مع اثنين.

أنماط الأفكار

لنتحول الآن عن الفكر بوصفه قُدرة إلى الفكر بوصفه نوعًا مميَّزًا من أنواع الحدث أو الوضع العقلي. ما الذي يميز الأفكار عن الأنواع الأخرى من الأحداث والأوضاع العقلية؟ وما الذي يميز أفكارًا من نوع معين عن أفكار من نوع آخر؟

افترض أنك أمام ألعاب نارية، تستطيع رؤية الشرارات التي تصدر عن النار، وتستطيع سماع الأزيز الصادر عن ألسنة اللهب، وبالتأكيد توجد أحداث إدراكية متنوعة، إلا أنك قد تجد نفسك أيضًا عاكفًا على التفكير بحفلة الألعاب النارية، قد تجد نفسك متسائلًا عن الآلية الدقيقة لعملية الاحتراق الانفجاري، أو متسائلًا عما يمكن أن يحصل للألعاب النارية إذا غَيَّرت الرياح اتجاهها فجأة، ستكون هذه الأفكار منطلقة من تجربتك الإدراكية، ولكنها ليست هي ذاتها صيغًا إدراكية، ويمكننا أيضًا أن نضع الأفكار في مواجهة الأحاسيس الجسدية، فأن تكون الألعاب النارية باعثة على نوع من الإحساس المزعج بالحرارة شيء، غير أن الاقتصار على النظر في احتمال قيام الألعاب النارية بالتسبب بقدر مزعج من الحرارة شيء آخر تمامًا، وعلى نحو أعمّ، نحن بحاجة إلى أن نميِّز بين إحساس

المرء بجسمه من ناحية وتفكيره بجسمه من الناحية المقابلة؛ فقد يَحُول مخدِّرٌ موضعي دون إحساس المرء بقدمه، غير أنه لن يحول دون امتلاكه القدرة على التفكير بقدمه.

مع أن الأفكار مختلفة عن الإدراكات والأحاسيس الجسدية، فتوجد نقاطَ احتكاك مهمة كثيرة بين الأفكار من جهة وجملة الحالات الإدراكية والأحاسيس الجسدية من الجهة الأخرى، إذ تستطيع الحالات الإدراكية والأحاسيس الجسدية ـ مثلًا ـ أن تطلق أفكارًا معينة، فسماع الضجيج الآتي من الشارع قد يدفع المرء إلى استنتاج أن عِراكًا قد نشب بين الجيران؛ ومن شأن إحساسات غريبة في الصدر أن تجعل المرء يتساءل عن احتمال كونه مصابًا بأزمة قلبية. بالإضافة إلى أن حالات الإحساس لا تكتفي بإثارة أفكار مختلفة الأنواع، بل تستطيع أيضًا أن توفر المؤشرات الدالة على تلك الأفكار؛ فقد يسوِّغ المرء فكرة أن الجيران يتعاركون عن طريق لفت الانتباه إلى الضجيج الآتي من الشارع؛ ويمكنه أن يدافع عن فرضية الإصابة بأزمة قلبية عن طريق الإشارة إلى الإحساسات الغريبة التي يشعر بها المرء في صدره.

وعلى الرغم من أن التمييز بين الأفكار من ناحية وحالات الإحساس (مثل الإدراكات والأحاسيس الجسدية) من ناحية أخرى ليس صعب الالتقاط على المستوى الحَدْسي، فإن تقديم تعبير واضح وصارم عنه أمر بعيد عن أن يكون مُيَسَّرًا. ثمة منظّرون يزعمون أن الأفكار يمكن تمييزها عن الحالات الإدراكية والأحاسيس الجسدية بالإفادة من واقع أن الأفكار تنطوي على نشر المفاهيم، في حين أن حالات الإحساس ليست كذلك،

والفكرة هنا تتمثل بأن المرء لا يستطيع أن يفكر بقطة دون امتلاك مفهوم عن القطة، رغم قدرته على تمييز شيء بصريًّا بوصفه قطة دون أن يكون متوافرًا على المفهوم عن قطة ما. وعلى أي حال، فإن محاولة تمييز الأفكار عن حالات الإحساس بهذه الطريقة إشكالية وملتبسة، لا لمجرد أن منظّرين كثيرين يزعمون أن الإدراك ينطوي على مفاهيم، بل لأن تحديد طبيعة المفاهيم بدقة أثبت أنه بالغ الصعوبة.

أساتذة تنظير آخرون يرون أن من الممكن تمييز الأفكار عن حالات الإحساس عن طريق استحضار مفهوم الطبيعة الواعية؛ كيف يبدو عندما تكون في نوع معين من أنواع الحالة العقلية؟ بعض المنظّرين يزعمون أن الأفكار ـ خلافًا لحالات الإحساس ـ لا تشتمل على أي طبيعة واعية بالمطلق، ومن هذا المنطلق ليس ثمة أي فرق بين التفكير بقوس قزح أو ببيانو، في حين يوجد تباين بين رؤية قوس قزح من ناحية والاستماع إلى عزف على بيانو من ناحية ثانية. منظّرون آخرون يزعمون وجود شيء مميز في امتلاك فكرة، غير أن امتلاك فكرة مختلف كثيرًا عن الاستمتاع بحالة إدراكية أو إحساس جسدي: في حين أن حالات الإحساس لا تنطوي إلا على (طبيعة شعورية) خالصة، فإن الطابع التجريبي للأفكار معرفي بامتياز ـ كما يزعم الزاعمون. (ثمة فريق ثالث أيضًا من أساتذة التنظير يجدون الكلام عن نوع واعٍ للفكر شديد الغموض، وليس من المؤكد مطلقًا أنهم يعرفون بدقة موضوع هذا الجدال!) من المؤكد أنه لا يوجد أي توافق حول إمكانية تمييز الأفكار عن حالات الإحساس عن طريق الإحالة على فكرة الطبيعة الواعية. (بمَ نفكر؟ هل يبدو أنه يوجد شيء مميز بما يشبه امتلاك

نوع من الفكر الواعي؟) في المحصلة لا يوجد أي اتفاق عما يعنيه تمييز الأفكار عن الأحداث الإدراكية والحسية.

لنلتفت إلى مسألة مدى اختلاف أفكار من نوع معين عن أفكار من نوع آخر، ثمة بُعْدان يمكن اعتمادهما للتمييز بين الأفكار؛ يتعلق البُعْد الأول بما تعنيه الأفكار، ويمكننا أن نفكر بكيانات خاصة، مثل السنغال، يوليوس قيصر، أو الرقم (6)، ويمكننا أن نفكر بأصناف الأشياء، مثل صنف البشر الذين يملكون حيوانات غريبة، أو صنف الأفراد الذين مشوا على سطح القمر، ويمكننا أيضًا أن نفكر بالصفات، مثل القامة البالغة ست أقدام أو التَقَدُّم في السن على الأشقاء، ويمكننا كذلك أن نفكر بأحوال الأمور، مثل واقع أن القطة على الممسحة، أو واقع أن الكلب على الممسحة، ويمكننا أن نفكر عما كان يمكن للأمور أن تكونه ولكنها لم تفعل أو عما هي عليه الأمور وما يجب أن تكون، ويمكننا أن نفكر بأشياء غير موجودة، مثل زيوس أو شارلوك هولمز.

هناك أسلوبان للدلالة على الأشياء المرتبطة بالفكرة: يمكننا أن نشير إلى تلك الكيانات بوصفها أهدافًا للفكر، ويمكننا أن نشير إلى كيانات بوصفها مضامين للفكر. (كلمة مضامين هنا اختزال لعبارة مضامين افتراضية) لكل من أسلوبي الكلام هذين جدواه، ونحن عازمون على الإفادة منهما كليهما.

أما البُعد الثاني الذي تختلف الأفكار بموجبه، فيتعلق بالموقف الذي يتخذه المفكر من أهداف الفكر ومضامينه؛ عاينوا أفكارًا عن توافر القهوة عند الفطور، قد يعتقد أحدهم أنه توجد قهوة في الفطور، في حين أن آخر

قد يرغب في وجود قهوة مع الفطور، ومن شأن ثالث أن يتوخَّى وجود قهوة في الفطور. كل من هذه الكلمات (يعتقد، يرغب، ويتوخَّى) تلتقط مواقف متباينة يمكن للمرء أن يتخذها من حالة الأمور. (بعض الكتاب يستخدمون عبارة (نمط) بدلًا من (موقف) هنا).

وهذان البُعْدان- مجتمعين- يزودانا بما قد نطلق عليه اسم مفهوم الموقف الافتراضي للفكر، ومع أن هذا التصور للفكر ساطِعُ الوضوح، فإن من غير الحكمة أن نقارن الأفكار بحالات المواقف الافتراضية، نستطيع اكتشاف السبب عبر تأمل طبيعة الإيمان أو الاعتقاد. اطرحْ على نفسك السؤال الآتي: في أي قارَّة توجد الأنديز [سلسلة جبال الأنديز]؟ وبعد أن تكون قد طرحْتَ على نفسك هذا السؤال، تكون - كما أفترض - عاكفًا على التفكير بالأنديز، ولكن انظر الآن في الحالة العقلية التي كنت فيها منذ خمس دقائق، حين لم تكن بعد مهتمًا بهذا السؤال.، ومع أنك لم تكن تفكر بالأنديز، فإنك كنْتَ (أفترضُ) مؤمنًا بأن الأنديز هي في أمريكا الجنوبية (لو كان أحدهم قد قال لك إنك مؤمن بأن الأنديز موجودة في أمريكا الجنوبية، لكان ما قاله صحيحًا)، ما يوحي به هذا هو أن المرء يستطيع أن يؤمن بأن الوضع هو كذا وإن لم تكن القضية المطروحة واردة في عقله، نستطيع الإشارة إلى مثل هذه الحالات غير الحاصلة على أنها اعتقادات افتراضية، وبالفعل فإن الأكثرية الساحقة لأفكارنا ليست إلا افتراضية؛ لأننا لا نعاين دائمًا سوى أجزاء من اعتقاداتنا في أي محطة زمنية. وما ينطبق على الاعتقاد ينطبق أيضًا على أنواع حالات المواقف الافتراضية الأخرى، مثل الرغبة والقصد؛ إذ يستطيع المرء أن يرغب في الركض في

أحد سباقات الماراتون، أو ينوي الزواج دون التفكير عمليًّا بأيٍ من هذين الموضوعين في اللحظة المعنية.

ما تأثير هذا في العلاقة بين الأفكار والمواقف الافتراضية؟ لعل الترابط هو هذا: على الرغم من أن حالات المواقف الافتراضية قد تكون مزاجية، فإن الأفكار لا يسعها أن تكون كذلك؛ فأن يقال إن أحدهم يفكر بالأنديز يعني الالتزام بالزعم بأنه في حالة عقلية حاصلة، وربما واعية، بشأن الأنديز بطريقة ما. أما القول بأن لدى أحدهم اعتقادات، أو رغائب، أو نوايا ذات علاقة بالأنديز، فلا يعني أي التزام بمثل هذا الزعم. لنا أن نقول إن كلمة (فكر) محجوزة لتجليات المواقف الافتراضية الحاصلة.

ممارسة التفكير

إلى الآن تابعنا النظر في الفكر بوصفه نوعًا خاصًا من أنواع القُدرة العقلية، نوعًا خاصًا من أنواع الوضع أو الحَدَث الذهني، لنتوجه الآن نحو وجه ثالث للفكر: الفكر بوصفه نشاطًا ذهنيًّا؛ بعبارة أخرى، تعالوا نعاين عملية التفكير.

كي نفهم عملية التفكير، لا بد لنا من فهم الأساليب التي تترابط بها الأفكار، فصحيح أن الأفكار قابلة لأن ترد منفردة ـ لدى التوقف عند إشارات المرور قد يفاجأ المرء بفكرة أن الصداقة نِعْمةٌ أساسية ـ غير أن الأكثر شيوعًا بالنسبة إلى الأفكار هو أن ترد في سلاسل مجمَّعات فكرية، استطرادات فكرية مترابطة فيما بينها بطريقة ما.

ثمة طريقتان لترابط عناصر إحدى السلاسل الفكرية فيما بينها؛ فبعض السلاسل لا تشتمل إلا على علاقات ترابطية، وقد لاحظ الفيلسوف الإسكتلندي ديفيد هيوم أن الأفكار تقدِّم بَعْضَها بقدرٍ معين من المنهجية والانتظام، وتابع هيوم متعرفًا عددًا من علاقات الترابط التي تتولى الأفكار تقديم بعضها بعضًا، من قبيل احتمال أن موضوعات هذه الفكرة شبيهة بنظيراتها لدى تلك. ونمط التفكير الترابطي مألوف في أحلام اليقظة وغيرها من ألوان الرؤى الخيالية، ويبدأ المرء بالتساؤل عما إذا كانت الأفلام المستندة إلى كُتُب هي على المستوى نفسه من الجودة مثل الكتب التي تستند إليها، ما يفضي به إلى التساؤل عن الأفلام المعروضة حديثًا، وما يؤدي- بدوره- إلى جعل المرء يتساءل عن أي أيام الأسبوع يذكِّره بموعد معيَّن، وهكذا.

سلاسل الأفكار المتَّصلة عن طريق علاقات ترابطية يمكن وضعها مقابل سلاسل أفكار متصلة بوساطة علاقات استدلالية، انظر إلى سلسلة أفكار (سقراط إنسان، كل البشر فانون، وسقراط فان)، فعناصر سلسلة الأفكار هذه مترابطة استدلاليًّا؛ لأن كون الفكرتان الأوليان صحيحتين، فيوجب أن تكون الثالثة أيضًا صحيحة، وبوصفه مثالًا آخر: انظروا إلى أفكار: عمومًا يتم إيصال البريد في التاسعة صباحًا، الساعة الآن هي التاسعة والنصف، بات البريد موزَّعًا. سلسلة الأفكار هذه منطوية أيضًا على علاقات استدلالية لأن الفكرتين الأولَيَيْن توفِّران الأسباب الداعية لتصديق الفكرة الثالثة، وهاتان السلسلتان الفكريتان الاستدلاليتان يمكن إيرادهما مقابل سلاسل فكرية ترابطية، حيث قد توحي فكرة عن مقبرة بفكرة عن

الفناء، أو توحي مادة صحفية عن احتمال إضراب بريدي بالتساؤل عما إذا كان بريد اليوم قد وصل.

للتباين بين سلاسل التفكير الترابطية وسلاسل التفكير الاستدلالية أهمية حاسمة في سياقات كثيرة، انظروا إلى إستراتيجيتين يستطيع محامي ادعاء أن يوظفهما من أجل الإقناع؛ تقوم الإستراتيجية الأولى على محاولة استثارة سلسلة أفكار في أذهان المحلِّفين تؤدي إلى نقل هؤلاء المحلِّفين من أفكار حول وقائع معينة تخص القضية (مكان الجثة؛ البصمات المأخوذة من مسرح الجريمة) إلى فكرة أن المتهم مذنب عن طريق علاقات منطقية وإثباتية. أما المنهج الثاني الذي قد يلوذ المحامي باستخدامه ـ وهو منهج أقل شُهْرةً ـ فهو صَرْف المحلِّفين عن تبنِّي سلاسل أفكار تربط المتهم بالجريمة؛ فقد يبادر المحامي ـ مثلًا ـ إلى التركيز على أن المتهم يشبه مجرمًا ذائع الصيت من حيث المظهر، بما يدفع المحلِّفين إلى تبنِّي أفكار ستفضي طبيعيًّا إلى طرح فكرة أن المتهم مذنب.

مع أن هناك نوعًا من المتعة في تعقّب سلسلة فكرية ترابطية خالصة، فإن قوة التفكير كامنة في واقع أنه يمكِّننا من اقتفاء أثر جملة العلاقات المنطقية والإثباتية بين الأفكار، حقًا نحن ميالون إلى حصر كلمة التفكير بفعالية تعقُّب مثل هذه العلاقات، لعل قابلية الإمساك بالعلاقات الاستدلالية بين الأفكار هي التي تمكِّن عناصر التحرِّي من حلِّ عقد الجرائم، وتتيح للعلماء فرصة اختبار الفرضيات، وتزوِّد هواة لعبة السودوكو بقابلية استكمال الخروج من متاهاتهم. جزء كبير من قيمة الفكر نابع من قدرتنا

على تنظيم أفكارنا في سلاسل متجانسة، وصولًا إلى رؤية ما يترتب على ماذا؛ وبعبارة أخرى، جزء كبير من اهتمامنا بالتفكير متعلق بالمحاكمة.

توحي بحوث علم النفس بأن من شأن المحاكمة أن تأخذ شكلين، فبعض المحاكمات آلية وحدسية، في حين أن محاكمات أخرى تكون تأملية وخاضعة للتحكم. (غالبًا ما تتم الإشارة إلى هذا التمييز بوصفه تمييزًا بين محاكمة نظام أول ومحاكمة نظام ثان). تكون المحاكمة الآلية سريعة وخاضعة عمومًا لنوع من التحكم الواعي، أما الفرق بين المحاكمة الآلية ونظيرتها الخاضعة للتحكم، فليس جامدًا وراسخًا بل يشير إلى طرفي خط متصل، وأمثلة محاكمة كثيرة تقع في موقع ما بين آلية تمامًا من جهة ومنضبطة تمامًا من الجهة الثانية.

والتباين بين نمطي المحاكمة هذين يتجلى بأوضح صوره في الأوهام المعرفية، تلك السياقات التي تكون فيها أحكامنا الحدسية والعفوية متناقضة مع نظيرتها المدروسة والتأملية، وأحد الأوهام المعرفية المدروسة على نطاق واسع جدًّا ينطوي على مهمة طوَّرها أستاذ علم النفس بيتر واسون (Peter Wason) في ستينيات القرن العشرين، وباتت تُعْرف باسم مهمة اختيار واسون. هَبْ أربع بطاقات معروضة عليك (انظر الشكل: 1)، وقد قيل لك إن على أحد وجهي كل بطاقة رقمًا وعلى الوجه الثاني حرفًا، يُطلب إليك بعد ذلك الوقوف على ما إذا كانت البطاقات منسجمة مع القاعدة الآتية:

القاعدة: إذا كانت إحدى البطاقات تحمل الحرف س على أحد الوجهين، فإن وجهها الآخر يحمل الرقم 3.

السؤال: نظرًا إلى أن على كل بطاقة حرفًا على أحد الوجهين ورقمًا على الوجه الآخر، فأي بطاقة (أو بطاقات) يتعين عليك أن تقلبها كي تقرر ما إذا تمت مخالفة القاعدة؟

الشكل: 1 مهمة اختيار واسون

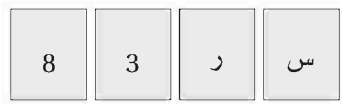

تخميني أنكم ميالون حدسيًّا إلى الاعتقاد بأنكم لستم بحاجة إلى قلب سوى البطاقتين الأولى والثالثة، هل ذلك هو الجواب الصحيح؟ أنتم بحاجة فعلًا إلى قلب البطاقة الأولى؛ لأنها لا تحمل الرقم 3 ولو كانت كذلك لفسدت القاعدة. هل أنتم بحاجة إلى قلب بطاقة أخرى؟ لا؛ فكونها حاملة للرقم 3 أو غير حاملة له، فهذا أمر لا أهمية له، غير أنك لست بحاجة أيضًا إلى قلب البطاقة الثالثة؛ لأن من شأن القاعدة أن تكون سليمة سواء أحرف س كان على وجهها الآخر أم لا. (لا يهم أن تكون هذه البطاقة حاملة للحرف ر ـ مثلًا ـ على وجهها الآخر؛ لأن القاعدة تقول فقط إن أي بطاقة حاملة للحرف س على أحد وجهيها تكون بالضرورة حاملة للرقم 3 على وجهها الآخر). ومهما يكن فأنت بحاجة فعلًا إلى قلب البطاقة الرابعة؛ لأن من شأن وجود حرف س على الوجه الآخر أن يثبت أن القاعدة زائفة.

تشكل مهمة اختيار واسون دليلًا على وجود فجوة بين الفكر الحدسي ونظيرة التأملي؛ لأن من شأن السير قدمًا في التفكير بالمسألة إلى النهاية أن يمكِّن المرء من رؤية مدى خطأ جوابه الحدسي. من المدهش أن إغراء

المصادقة على حل المرء الحدسي للمسألة يبدو صامدًا حتى بعد تأملها بوعي، تمامًا كما تبدو خطوط وهم مولر ـ لير متباينة الأطوال وإن كان المرء على يقين بأنها ليست كذلك، فإن من المغري أيضًا أن يفكر المرء بأنه بحاجة إلى قلب البطاقتين الأولى والثالثة وإن بات أفضل معرفة.

نتقاسم قابلية المحاكمة الآلية والحدسية مع عدد كبير من الأنواع الأخرى، أما المحاكمة التأملية والخاضعة للتحكم، فتبدو سمة بشرية بامتياز، وهكذا فإننا نتمتع ببعض ـ وإن كان محدودًا ربما إلى حد معين ـ القدرة على نحت هذه القابلية وصَوْغها أو قَوْلبتها، نستطيع أن نتراجع خطوة إلى الخلف، ونعاين لا كيف نفكر بالفعل وحسب، بل كيف يتعين علينا وجوبًا أن نفكر، فلسنا مقيدين بأنماط التفكير التي تأتي من إرثنا التطوري والاجتماعي، بل نحن متوافرون ـ عن طريق التفكير بالفكر ـ على قابلية تطوير أساليب تفكير جديدة وأفضل، واجتراحها.

أين يجب علينا أن نبحث عن مبادئ قد تكون مؤهِّلة للتحكم في تقويم الفكر وضبطه؟ أساتذة تنظير كثيرون رأوا أن علينا أن نتطلع نحو الأنظمة الشكلية والرسمية للمنطق ونظرية الاحتمالات على هذا الصعيد، غير أن جدوى المنطق ونظرية الاحتمالات ـ رغم أنهما يزودانا ببعض المؤشرات الدالة على الأسلوب الذي ينبغي اعتماده في التفكير ـ تبقى مدهشة المحدودية في هذا المجال؛ فالمنطق ونظرية الاحتمالات تنبئان المرء مثلًا عن كيف يجب ألا يفكر لا عن كيف يجب أن يفكر في أفضل الأحوال، إليكم السبب: افترضوا أنكم معتقدون بأن فراخ البط جميعها تستطيع أن تسبح، وتعتقدون أيضًا أن دونالد فرخُ بط، فإذا كانت فراخ البط جميعها

قادرة على السباحة ودونالد بطة، فإن المطلوب بالضرورة أن يكون دونالد قادرًا على السباحة؛ ولكن، هل يعني ذلك أن عليكم أن تؤمنوا بأن دونالد قادر على السباحة؟ لا بالضرورة لأن من شأن أحدهم أن يكون قد زوَّدكم بأدلة سليمة تثبت أن دونالد لا يستطيع أن يسبح، ما الذي يجب أن تفعلوه؟ قد يتعين عليكم التخلي عن الإيمان بأن فراخ البط جميعها سبَّاحة، أو ربما يتعين عليكم أن تنفضوا أيديكم من الاعتقاد بأن دونالد فرخ بط (قد يبدو دونالد أشبه بفرخ بط، غير أن كل ما يشبه البط ليس بطًا). أو ربما قد يتعيَّن عليكم أن تتساءلوا عما إذا كانت الأدلة الدافعة إلى الظن بأن دونالد لا يستطيع السباحة بطريقة سليمة كما بدت؛ لا يستطيع المنطق وحده أن يشير إلى ما يتعين على المرء أن يفعله، وأيٌّ جواب من هذه الأجوبة قد يكون مناسبًا، تبعًا لتفاصيل الحالة، فالشيء الوحيد الذي يفيدكم به المنطق هو ألا تكون سلسلة (فراخ البط جميعها تستطيع أن تسبح، دونالد فرخ بط، ودونالد لا يستطيع أن يسبح) صحيحة.

ثمة عيب ثانٍ في المنطق ونظرية الاحتمالات وهو أن أيًّا منهما لا يأخذ في حسبانه جملة التقييدات التي يتعين علينا التفكير في ظلها، حيث يوضع التفكير دائمًا في سياق خاص، وما يُعد تفكيرًا جيدًا يتوقف على القيود المفروضة على السياق المعني، وإحدى رُزَم القيود مستمدة من سمات بيئته، ففي بعض السياقات يتوافر للمرء الوقت كله الموجود في العالم لإشباع أي مشكلة تفكيرًا، والحاجة إلى الحصول على الجواب الصحيح أهم من القفز إلى جواب متسرِّع (فكروا بمهندس مطالَب بتحديد المدى اللازم

لعمق أساسات أحد الأبنية). في سياقات أخرى يكون الوقت هو الجوهر، وأي اقتراب مما هو صحيح بسرعة يكون أفضل من حكم صائب مئة بالمئة يصل بعد فوات أوان أي استخدام له (فكِّروا بطيَّار يحاول الوقوف على السبب الكامن وراء الخلل الحاصل في المحرك).

مجموعة أخرى من القيود على ما يُعد تفكيرًا سليمًا نابعة من سمات عقل الوكيل نفسه، والوكلاء يتباينون في قابلياتهم المعرفية وما يُعد تفكيرًا سليمًا سيتوقف على أطر تلك القابليات؛ فأي ممارسة فكرية لافتة في طفل عمره ست سنوات قد يكون روتينيًّا مئة بالمئة إذا اضطلع بها راشد. وثمة مثال جيد على الحاجة إلى تَذَكُّر هذه الاعتبارات يتعلق بالزعم كثير التكرار القائل إن على المرء ألا يعتنق معتقدات متنافرة. على السطح من شأن هذا الخطر أن يبدو غير إشكالي نظرًا إلى أن الزعمين المتنافرين يتعذر أن يكونا- كلاهما- صائبين، غير أن على المرء، كي يكون ممتثلًا لهذه الوصية، أن يهتدي إلى طريقة ما للبحث عبر مخزونه من المعتقدات تحريًا لآيات التضارب فيما بينها، وبالنسبة إلى أمثالنا من المثقلين ببنى عقدية هائلة التعقيد وذوي قابليات تطوير وغربلة، فإن هذه مهمة باعثة على بحر من القلق.

وهكذا فإن أي كلام عن معايير الفكر يجب أن يأخذ في الحسبان ملامح بيئة الوكيل من جهة وقدرات الوكلاء المعرفية من جهة ثانية، وفي أفضل الأحوال يتعامل المنطق ونظرية الاحتمالات مع عقلانية لا محدودة،

ذلك النوع من العقلانية الموجودة لدى من يتوافر لديهم وقت غير محدود وطاقة احتسابية، أما نحن فمطالبون بأن نحاكم في ظل ظروف ضغط الزمن وبطاقات احتسابية محدودة؛ فأي مجموعة صالحة للتطبيق مما أطلق عليها ديكارت قواعد توجيه العقل يجب أن تستند إلى هياكل رسمية مستكشفة من قبل المنطق ونظرية الاحتمالات، غير أن عليها أيضًا أن تأخذ في الحسبان قدراتنا نحن بوصفنا مخلوقات محدودة؛ بعبارة أخرى، إن أي تفسير مناسب للكيفية التي علينا اعتمادها في التفكير يتعيَّن إثراؤه بشرح كيف نستطيع أن نفكر.

* * *